رسول الله يؤمر بالهجرة

قال أحد الصحابة: (كان رسول الله ﷺ بمكة، فأُمر بالهجرة، وأنزل عليه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾[1].

وبعد نزول هذا الأمر الكريم اتجه ﷺ نحو صاحبه أبي بكر في سرية تامة.. متلثماً، وفي وقت يلوذ الناس ببيوتهم، وتخف وطأتهم على الطرقات والدروب لشدة الحر والرمضاء. في هذا الوقت الذي يتجول فيه السموم واللهب وحدهما عبر الطرقات.. كان ﷺ يطرق باب أبي بكر الصديق بحذر شديد، فتقول عائشة رضي الله عنها: (فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً[2] - في ساعة لم يكن يأتينا فيها - فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعةإلا أمر. فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرج من عندك».

فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله. قال ﷺ: «فإني قد أذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: «الصحابة»[3] بأبي أنت يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «نعم». قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. قال رسول الله ﷺ: «بالثمن»)[4]. أى سأدفع قيمتها.

هذا ما كان يفعله رسول الإسلام ﷺ، أما أعداء الإسلام والحياة.. طواغيت قريش، فكانوا في تلك الأيام في شغل وهم ومكائد ينسجون خيوطها في مكان يقال له:

---

(١) سنده حسن. رواه أحمد ١-٢٢٣ حدثنا جرير، عن قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه، وقد مر معنا تخريجه، وقال ابن كثير بعد أن ذكره: قال الترمذي: حسن صحيح. سنده صحيح رواه عبد الرزاق ٦ - ٢٣٥ أخبرنا بن جريج قال أخبرني حبيب بن أبي ثابت أن عبد الحميد بن عبد الله بن أبي عمرو والقاسم بن محمد بن عبد الرحمن أخبراه أنهما سمعا أبا بكر بن عبد الرحمن يخبر أن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته

(٢) متغطياً بثوب متخفياً عن أعين قريش.

(٣) أي أريد صحبتك في هذه الهجرة.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٥).

دار الندوة

حيث تحولت قريش في اجتماعاتها الحاسمة إلى حمم من الغضب.. دار الندوة تحولت إلى بركان ثائر يريد رأس رسول الله ﷺ بأي ثمن، فقد أيقنت قريش بأنه لا محالة خارج إلى مدينة الإسلام الجديدة متلحقاً بأصحابه. فالوضع مخيف جداً، وقريش يخيفها مستقبلها المجهول إن انتصر عدوها، لذلك اجتمعت في يوم أسمته (يوم الزحمة) الذي تحدث عنه أحد الصحابة فقال: (لما اجتمعوا لذلك، واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة، ويتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى الزحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بت[1] له، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها، قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأي ونصح، قالوا: أجل، فادخل.

فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش كلهم من كل قبيلة: من بني عبد شمس: شيبة وعتبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل.

ومن بني عبد الدار بن قصي: النضر بن الحارث بن كلدة.

ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام.

ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام.

ومن بني سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج.

ومن بني جمح: أمية بن خلف. ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يعد من قريش، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد كان، وما قد رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. فتشاوروا.

---

(١) البت: هو الكساء الغليظ.

ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله: زهيراً، والنابغة، ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه منه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لو حبستموه كما تقولون لخرج أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم هذا، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره ثم تشاوروا.

فقال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا، فإذا خرج فوالله ما نبالي إلى أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. قال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم بهم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن تأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جلداً، نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدون إليه، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فيقتلونه فنستريح، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، ورضوا منا بالعقل[1]. فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل. هذا الرأي لا رأي لكم غيره،

فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له)[2].

---

(١) أي الدية.

(٢) حديث حسن بطرقه، رواه ابن إسحاق، ومن طريقه رواه الطبري ٢-٣٧٠ من عدة طرق، صرح فيها بالسماع. سمعه من الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهذا الطريق لا يفرح به لأن فيه الكلبي تالف، أما الطريق الثانية: الحسن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة، عن مقسم، عن ابن عباس. والحسن هذا متروك، أما الطريق الثالثة فرجالها ثقات: حدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبير عن ابن عباس، ومجاهد إمام تابعي ثقة معروف وعبد الله بن أبي نجيح ثقة، لكنه ربما دلس أي أنه قليل التدليس، وللحديث شواهد تجعله حسناً لا شك، فقد رواه عبد الرزاق عن قتادة (٣٨٩/٥) مرسلاً وهذا شاهد يكفي، كذلك له شواهد عند الواقدي عن علي وعائشة وسراقة. والواقدي متروك.

ذلك ما أســفر عنه يوم الزحمة، أما بيت أبي بكر حيث تزحم الحكمة بالحماس بالتخطيط، فلم يكن أقل نشاطاً مما يحدث في دار الندوة، فالكتمان والصمت والعمل الدؤوب شعار للجميع.

تقول عائشــة: (فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين)[1]، فتاتان من فتيات الإســلام يواجهن الموت ليل نهار.. يردن بذلك وجه الله، وينشــرن أذرعهن طريقاً لمدينة الإسلام.. هاتان الفتاتان ليستا وحدهما من بين شباب الإسلام. كان هناك شاب عظيم طرح للموت جسداً باعه لله يفتدى به رسوله ﷺ ذلك هو:

علي بن أبي طالب على فراش الموت

فعندما اتفق الطغاة على تحديد ليلة ينكســون فيها ســيوفهم في ذلك الجســد الطاهر.. ثمانية ســيوف، وربمــا أكثر تتلمض.. تريد أن تســتحم بدمائه ﷺ.. تريد إطفاء نور الله، والله متم نوره ولو كان فوق كل حبة رمل سيف لأعدائه.

أرســل الجبار ســبحانه وحياً يحمله جبريل (فأتى جبريل رسول الله ﷺ، فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشــك الذي كنت تبيــت عليه، فلما كان العتمة من الليل اجتمعوا على بابه، فترصدوه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رســول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي، واتشح[2] ببردي الحضرمي الأخضر، فنم فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام)[3]، فامتثل الشاب لأمر ســيده ﷺ، واتشــح بالبرد، وكان على استعداد ليتشح بالدماء، فقد علمه الإسلام كيف يبذل روحه لله وحده.. علمه كيف يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من نفسه. وخرج رسول الله ﷺ متسللاً، وبعد خروجه (جاء أبو بكر وعلي نائم، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله، فقال: يا نبي الله. فقال علي: إن نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون فأدركه.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري، وقد مر معنا أوله. ومعنى أحث الجهاز أي أســرعه، والجراب وعاء يوضع فيه الطعام والنطاق هو الحزام.

(٢) أي تغط.

(٣) جزء من حديث طويل مر معنا وهو عن اجتماع دار الندوة وهو حسن بالشواهد.

فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار، وجعل علي يُرْمَى بالحجارة كما كان يُرْمَى نبي الله ﷺ وهو يتضور[1]، قد لف رأسه في الثوب لا يخرجه حتى أصبح، ثم كشف رأسه، فقالوا: إنك للئيم، كان صاحبك نرميه فلا يتضور، وأنت تتضور، وقد استنكرنا ذلك)[2].

إذاً حدث تغيير بسيط في خطة الهروب، فبعد أن علم ﷺ بالمؤامرة لم ينم على فراشه، بل تسلل ﷺ بعد تخطيط محكم وخدعة بارعة انطلت على جميع الأغبياء والأذكياء منهم.. على كل سيف صلت قد سل خلف بابه، ولم تكتشف أكداس الكفر خلف الجدار ما حل بهم، إلا بعد أن تنفس الصبح في وجوههم.. يوقظهم ليسخر منهم. علي بن أبي طالب كان فتى يعدل أمة، ويخدع طواغيتاً قد ركمهم الحقد وحنطهم الغل حول الباب، بينما كان رسول الله ﷺ يأخذ بيد صاحبه أبي بكر عند بئر ميمون، ويواصلان المسير على عجل.. يدفعان الجبال عنهما دفعاً. بالتأكيد لم يكونا في نزهة خارج مكة.. لقد كانا مسرعين يقصدان جبلاً عيَّناه وحدداه، ورسماه ضمن خارطة الهجرة وخطة الهروب، وهما الآن يعجان إليه.

لكن أبا بكر الصديق لم يكن على عادته.. كان مرتبكاً.. طريقة سيره توحي بذلك، فهو يحمل روحه في إحدى يديه، ويحمل باليد الأخرى خمسة آلاف درهم هي كل ما يملكه من مال، لكن حركته واضطرابه لا توحي بأنه خائف على روحه، ولا على ثروته فمم كان يتوجس؟

ماذا دهاك يا أبا بكر

أتدرون ماذا كان يفعل (يكون أمام النبي ﷺ مرة، وخلفه مرة، فسأله النبي ﷺ عن ذلك فقال: إذا كنت خلفك خشيت أن تؤتى[3] من أمامك، وإذا كنت أمامك خشيت

---

(١) يتلوى.

(٢) سنده جيد، رواه أحمد ١-٣٣٠ من طريقين، عن أبي عوانة، حدثنا أبو بلج، حدثنا عمرو بن ميمون عن ابن عباس. أبو عوانه اسمه: وضاح بن عبد الله اليشكري، ثقة ثبت. التقريب ٥٨٠ وشيخه يحيى بن سليم حديثه حسن إذا لم يخالف، أما عمرو بن ميمون أبو عبد الله الأودي، فهو مخضرم مشهور وثقة عابد. التقريب ٤٢٧.

(٣) أي تهاجم وتصاب.

أن تؤتى من خلفك)[1] واستمر أبو بكر في تصرفه حتى عندما لامست أقدامه صخور الجبل.. وعند الصعود فعل ذلك (حتى انتهى إلى الغار من ثور).

عندهـــا فعل أبو بكر مـــا لا يفعله غيره (قال أبو بكر: كما أنت[2]. حتى أدخل يدي فأحسه وأقصه فإذا كانت فيه دابة أصابتني قبلك)[3].

كان أبو بكر طيفاً من الحنان.. ســـحابة حب تظل رســـول الله ﷺ.. كأني به يود لو صنع من جسده درعاً يحمي به رسول الله ﷺ حتى يصل إلى أحبابه المنتظرين في حرة المدينة، وبين نخيلها، فلا عجب أبداً بعد هذا أن يحمر وجه عمر بن الخطاب غضباً على رجـــال فضلوه على أبي بكر.. لقد كان يعرف من هو أبو بكر، فقد (ذكر رجال على عهد عمر فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر، فبلغ ذلك عمر، فقال رضي الله عنه: والله لليلة من أبي بكر خير من آل عمر، وليوم من أبي بكر خير من عمر. لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار، ومعه أبو بكر، فجعل يمشـــي ســـاعة بين يديه، وساعة خلفه، حتى فطن رســـول الله ﷺ فقال: «يا أبا بكر ما لك تمشـــي ســـاعة خلفي، وساعة بين يدي؟» فقال: يا رسول الله أذكر الطلب[4] فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد[5] فأمشي بين يديك. فقال رســـول الله ﷺ: «يا أبا بكر لو كان شـــيء لأحببت أن يكون بك دوني؟» قال رضي الله عنه: نعم. والذي بعثك بالحق.

فلمـــا انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رســـول الله حتى اســـتبرئ، فدخل فاســـتبرأ ثم قال: انزل يا رســـول الله. فنزل ثم قال عمر رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر)[6].

---

(١) حديث حســـن بالشـــواهد: رواه البغوي (ســـيرة ابن كثير ٢/٢٣٧) وابن هشام، حدثنا داود الضبي، حدثنا نافع بن عمر الجمحي، عن ابن أبي مليكة. داود الضبي ثقة التقريب ١٩٩ ونافع ثقة ثبت التقريب، وابن أبي مليكة تابعي ثقة أدرك ثلاثين صحابياً واســـمه عبد الله بن عبيد الله، إذاً فالنص مرســـل، لكن يشهد له حديث عمر، وســـند آخر جاء عن عمر. في دلائل البيهقي (٢/٤٧٧) وســـنده مرســـل عن الحسن رواه ابن هشام فالحديث حسن.

(٢) أي قف مكانك.

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

(٤) من يسيرون خلفه طلباً لدمه.

(٥) أي من يترصدون له في طريقه.

(٦) إسناده صحيح لولا الانقطاع، رواه البيهقي (٢/٤٧٦) أخبرنا موسى بن الحسن بن عباد، حدثنا عفان بن مســـلم حدثنا الســـري بن يحيى، حدثنا محمد بن ســـيرين. وهؤلاء ثقات لكن الإمام ابن سيرين لم يدرك عمر، افلحديث حسن بما قبله، وبأحاديث ستأتي إن شاء الله.

ذاك جسد لأبي بكر باعه لله، وتلك دماء تشخب منه تنقش على جدران الغار حب الله وحب رسوله ﷺ: (لقد كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في الغار، فأصاب يده حجر، فقال:

إن أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت)[1]

ذاك جسد أبي بكر، أما مال أبي بكر.. كل ماله، فمنثور بين يدي رسول الله ﷺ في الغار.. حمله كله، وقدمه لرسول الله ﷺ كله، حتى صار بيت أبي بكر في مكة خالياً إلا من الإيمان، وفتيات رباهن الإسلام وأبو بكر.

هذه إحداهن.. الشابة المجاهدة العظيمة، التي هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، ثم عادت لتواصل جهادها.. لم يمنعها ثقل حملها بابنها البكر من المساهمة في أعظم رحلة غيرت وجه الأرض والعالم.. ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر تقول: (لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج معه أبو بكر، احتمل أبو بكر ماله كله ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف -فانطلق بها معه، فدخل علينا جدي: أبو قحافة[2]- وقد ذهب بصره - فقال: والله إني لأراه قد فجعكم[3] بماله مع نفسه. قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً. فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة[4] في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إذا كان يترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا إبلاغ لكم، قالت أسماء رضي الله عنها: ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكن أردت أن أسكن هذا الشيخ بذلك)[5].

إنهن بنات أبي بكر.. والدهن شريد طريد، مختبىء فوق أحد الجبال.. مختبئ بدينه ونبيه ﷺ، وهذه هي أحوال الدعاة بين مهاجر بعيد عن الأهل والمال، وأسير تفتك به أظافر قريش، ومطارد لا يدري ما تطوى له التلال والدروب. أما قريش فـ:

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، أن أباه عباد حدثه عن جدته أسماء. ويحيى وعباد ثقتان التهذيب ١١-٢٣٤ و٥-٩٨ وابن إسحاق لم يدلس .

(٢) اسمه عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب التيمي، مات ابنه أبو بكر قبله وقد أسلم.

(٣) آلمكم وآذاكم، أي أنه لم يترك لكم لا نفسه ولا ماله.

(٤) الكوة: الخرق في الجدار.

(٥) سنده صحيح، رواه ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عن جدته أسماء. يحيى وعباد ثقتان التهذيب ١١-٢٣٤ و٥-٩٨ وابن إسحاق لم يدلس .

قريش غاضبة

تفجرت كالشظايا في كل مكان.. بين الأودية والشعاب.. بين الجبال والدروب.. تقلب الصخور، وتفتح الأبواب وتهز أغصان الأشجار، وتسأل المسافرين وتستجوب الرعاة.. تتمنى لو تسأل الريح وحبات الرمال.. تبحث عنك يا رسول الله.. تتمنى لو وقعت في قبضتها ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[1].

يقول أحد الصحابة: (تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق - يريدون النبي ﷺ - وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه.

فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً - يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رد الله مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل خلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه)[2].

وعن غضب قريش يحدثنا حفيد أبي بكر فيقول: (إن مشركي قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم حين ظنوا أن رسول الله ﷺ خارج، وعلموا أن الله قد جعل له بالمدينة مأوى ومنعة، وبلغهم إسلام الأنصار ومن خرج إليهم من المهاجرين، فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا رسول الله ﷺ فإما أن يقتلوه، وإما أن يسجنوه، وإما أن يخرجوه، وإما أن يوثقوه، فأخبره الله عز وجل بمكرهم فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[3].

وبلغه ذلك اليوم الذي أتى فيه رسول الله ﷺ دار أبي بكر أنهم مبيتوه إذا أمسى على فراشه، وخرج من تحت الليل هو وأبو بكر قِبَل الغار بثور، وهو الغار الذي ذكره

---

(١) سورة الأنفال.

(٢) رواه أحمد (١-٣٤٨): حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، أخبرني عثمان الجزري، أن مقسماً مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس: قال ابن كثير: هذا إسناد حسن، وليس كما قال رحمه الله، ففي الإسناد: عثمان الجزري، وحديثه حسن بالشواهد فيحتاج إلى شاهد.. وهذا الشاهد جاء عن الحسن البصري مرسلاً ذكره ابن كثير في سيرته (٢/٢٣٩)، أما ذكر الحمامتين اللتين باضتا على فم الغار فلم أعثر له على سند قوي.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

الله عز وجل في القرآن، وعمد علي بن أبي طالب فرقد على فراشه، يواري عنه العيون)[1]. وقد وصل المشركون ورسول الله ﷺ نائم على فراشه، وكانوا ينتظرون خروجه، وللتأكد كانوا يرمونه بالحجارة فلا يتحرك، ثم أمر ﷺ علياً أن يرقد في فراشه فكانت هذه القصة التي يرويها ابن عم رسول الله ﷺ وابن عم علي رضي الله عنهم حيث يقول: (شرى عليٌّ نفسه، ولبس ثوب ا لنبي ﷺ ثم نام مكانه، وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ وقد كان رسول الله ﷺ ألبسه بردة، وكانت قريش، تريد أن تقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجعلوا يرمون علياً ويرونه النبي ﷺ وقد لبس برده، وجعل علي رضي الله عنه يتضور، -فنظروا- فإذا هو علي فقالوا: إنك للئيم، إنك لتتضور وكان صاحبك لا يتضور، ولقد استنكرناه منك)[2].

(فسألوه عن النبي ﷺ، فأخبرهم أنه لا علم له به، فعلموا عند ذلك أنه خرج، فركبوا في كل وجه يطلبونه، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم، ويُجعلون لهم الجُعل العظيم[3]. وأتوا على ثور الذي فيه الغار، الذي فيه رسول الله ﷺ، وأبو بكر، حتى طلعوا فوقه، وسمع النبي ﷺ أصواتهم، فأشفق[4] أبو بكر عند ذلك، أقبل على الهم والخوف، فعند ذلك قال له النبي ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا». ودعا، فنزلت عليه سكينة من الله عز وجل: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5].

إذاً فقد حامت الأقدام حول فم الغار.. لحظات تحبس الأنفاس وتتقلب فيها القلوب والأبصار، ويهجم الخوف والرعب من شقوق الغار.. من سيوف الطغاة، ومن العيون التي تتطاير إجراماً وشرراً لكن:

---

(١) إسناد مرسل ويشهد له ماسبق، ويرفعه إلى درجة الحسن. انظر دلائل النبوة للبيهقي (٢-٤٦٥)، وانظر كذلك مغازي عروة للعلامة الأعظمى (١٢٨).

(٢) سنده حسن. رواه الحاكم ٣-٤ والطيالسي وأحمد (١١٨/٢٣) عن أبي عوانه عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس. أبو عوانة: الوضاح وهو ثقة ثبت التقريب ٢٩٠ وشيخه حسن الحديث فهو صدوق ربما أخطأ وهو تابعي صغير مر معنا ، وابن ميمون فهو ثقة مخضرم مشهور، وقد مر معنا قبل قليل.

(٣) أي جائزة عظيمة مقابل ذلك.

(٤) أي خاف، ومعروف خوف أبي بكر وأنه على رسول الله ﷺ أولاً وأخيراً كما مر معنا.

(٥) سورة التوبة. وما بعده وما قبله يقويه لأنه مرسل عروة عند البيهقي ٢-٤٧٨.

الله ثالثهما

يصف الصديق تلك اللحظات الحاسمة، ويحدث الجميع بما جرى من حوار هامس بينه وبين حبيبه ﷺ فيقول: (نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه. فقال ﷺ: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»)[1].

إذا كان الأمر كذلك، فوالله لو سار مع قريش كل الأحياء، وتشققت المقابر فخرج الأموات.. يسحبون أكفانهم خلف أبي جهل.. يقلبون معه حجارة الأرض، ويجتثون أشجارها، ويزحزحون جبالها ما قدروا على اثنين الله ثالثهما، فكيف تقدر قريش.. هذا أمر لن يحدث أبداً ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

وانحدرت قريش من ذلك الجبل تلهث وتلهث، وتتصبب عرقاً وهزيمة.. تدحرجت أمامها كبرياؤها وغطرستها، وأعلنت لمن حولها عن هزيمة قاسية تلقتها من محمد ﷺ، وأعلنت عجزها وضعفها، فبدأت بالاستنجاد وطلب العون من أي شخص كان، عله ينجح في القبض على محمد ﷺ فهو:

مطلوب حياً أو ميتاً

وقد فتحت قريش صناديق الحلال والحرام، وعرضت الهدايا والهبات أمام الجميع.. تقدمها لمن يحضر رسول الله حياً، أو يسحبه ميتاً، أو يحمل رأسه ورأس صاحبه إليها.

أحد الذين سمعوا بالجائزة.. أحد الذين فركوا أيديهم طمعاً فيها رجل اسمه: سراقة بن مالك.. يحدثنا فيقول: (جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية، كل واحد منهما، من قتله أو أسره)[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ٤-١٧١٢ ومسلم ٤-١٨٥٤ واللفظ له.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٠.

(٣) جزء من حديث صحيح طويل سيمر معنا. رواه البخاري.

إذاً فقريش قد استنفرت رجالاتها وأموالها، وتوجهت إلى كل العرب ضد رسول الله ﷺ تستحثهم وتغريهم، لكن رسول الله ﷺ كان أذكى من الجميع، وقد أعد خطة محكمة لتذهب ضربات قريش في الهواء.. خطة تجعلها لا تجني من ركضها سوى الغبار والعرق، أما تنفيذ هذه الخطة فقد بدأ حالما انحدرت قريش من جبل ثور، فرسول الله ﷺ لم ينحدر بعدها. لقد قرر أن يمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيام.. هذه الأيام الثلاثة ستكون محمومة بالبحث والتفتيش، وهي كفيلة بالفتِّ من عزيمة الكفار، وتسريب الإحباط إلى نفوسهم. لكن كيف سيعرف رسول الله ﷺ وصاحبه ما يجري؟

كان الجواب شاباً من أبناء أبي بكر الصديق أيضاً.. ملأه الإيمان حباً وحماساً وبذلاً.. اسمه: عبد الله بن أبي بكر.. يعيش مع قريش في وضح النهار.. يخالطهم.. يكلمهم.. يسمع منهم.. يلتقط أخبارهم ومشاريعهم، ثم يحملها إذا جن المساء، فيصعد بها الجبل. وفي الغار تكون أخبار قريش ومخططاتها وخرائطها بين يدي رسول الله ﷺ وصاحبه، وقبيل طلوع الشمس عند الفجر، وبعد أن يؤدي الصلاة مع رسول الله ﷺ ينحدر إلى مكة ثانية، ليقوم بمهمته من جديد. وعبد الله لم يكلف في هذه المرحلة إلا بمهمة واحدة.. هي حمل الأخبار فقط، حتى لا يثير شك من يصادفه في طريقه.

أما الطعام، فقد كلف به شاب تربى في بيت أبي بكر أيضاً.. إنه أحد رعاة الغنم، واسمه: عامر بن فهيرة.. كان يسوق غنماته ويسيح معها في نزهة خارج مكة، وهذا أمر طبيعي لا يلفت الانتباه أبداً، فهو راعي غنم ومهمته تقتضي أن يكون خارج المدينة، فكان يحمل الزاد إليهما بعد العشاء، ثم ينصرف عنهما قبل طلوع الشمس أيضاً.

تقول عائشة رضي الله عنها: (فَكَمِنا[1] فيه ثلاث ليال، ويبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر - وهو غلام شاب، ثقف[2]، لقن[3]- فيدلج[4] من عندهما بسحر[5]، فيصبح مع قريش بمكة كبائت[6]، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك

---

(١) اختفيا في الغار.
(٢)حاذقاً: خفيفاً.
(٣) ذكي.
(٤) الإدلاج: هو السير أول الليل، والمراد هنا إنه يسير من عندهما وقت السحر.
(٥) السحر: هو قبيل الصبح.
(٦) أي كأنه نائم في مكة.

حـين يختلط الظـلام. ويرعى عليهما عامر بن فهيرة - مولـى أبي بكر- منحة[1] من غنم، فيريحها[2] عليهما حين تذهب سـاعة من العشـاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهمـا ورضيفهما[3]- حتى ينعق[4] عامر بـن فهيرة بغلس[5]، يفعل ذلك في كل ليلة من الليالي الثلاث)[6].

إذاً هناك بطلان: أحدهما يكشـف تفكيـر العدو، والآخر يحمل الطعام. لكن هل سيدوم الحال على هذا الوضع؟ لقد اشترى أبو بكر راحلتين فأين هما؟ أعند عبد الله، أم بين أغنام عامر بن فهيرة؟ وكيف سيحصلان عليهما وعيون قريش تدور.. تتلصص في كل مكان؟

لم تكن الإجابة صعبة على رسـول الله ﷺ، فقد أعد لذلك خطةً محكمة.. هذه الخطة تقضي بألا تكون الراحلتان عند عبد الله بن أبي بكر، ولا عند عامر بن فهيرة، فلـو كانتا عند أحدهما لارتبات قريش وزرعت شـكها عيناً تلاحقهما حتى تظفر بما تريد، ورسول الله ﷺ يدرك ذلك كله، ويدرك ما هو أبعد من ذلك، لذلك استخدم كل الوسـائل المباحة المتاحة في أرجاء الكون الفسيح له، فاسند لهذه المهمة رجلاً مشركاً، لكنـه كان أميناً، واعده ﷺ الليلة الثالثة كي يحضـر الراحلتين، وكان هذا الرجل من أعلـم الناس بطبيعة الطريق ومسـالكه.. يعرف كيف يتسـلل بهمـا بعيداً عن حوافر الشرك ورماحه.

تقول عائشـة: (واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل - وهو من بنـي عبد بن عدي - هادياً خريتاً. والخريـت: الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً في آل العاصي بن وائل السهمي - وهو على دين كفار قريش- فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور، بعد ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهما طريق السواحل)[7].

---

(١) عطية.

(٢) المراح: هو ما تأوى إليه الإبل والغنم بالليل.

(٣) اللبن الذي رضفت فيه الحجارة المحماة بالنار لينعقد ويثخن وتزول رخاوته.

(٤) النعق: صوت الراعي بغنمه.

(٥) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

(٧) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٥).

على دروب السواحل

على دروب السواحل.. الفجر سار يناضل، والليل صار مخيفاً، والخوف كان الرواحل. فهذه الرحلة يحدد نجاحها قيام دولة للإسلام في يثرب، أو موت حلم ثم البدء من جديد، والبحث من جديد. يقول الصديق رضي الله عنه: (أدلجنا من مكة ليلاً، فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا[1]، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل نأوي إليه، فإذا صخرة، فانتهيت إليها، فإذا بقية ظل لها، فسويته، ثم فرشت لرسول الله ﷺ فروة، ثم قلت: اضطجع يا رسول الله فاضطجع، ثم ذهبت أنفض[2] ما حولي هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذي نريد - يعني الظل- فسألته، فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش فسماه. فعرفته فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم.

فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، وأمرته أن ينفض ضرعها من التراب، ثم أمرته أن ينفض كفيه - فقال هكذا، فضرب إحدى كفيه على الأخرى - فحلب لي كثبة[3] من لبن، وقد رويت معي لرسول الله ﷺ أداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن، حتى برد أسفله، فأتيت رسول الله ﷺ فوافقته وقد استيقظ فقلت: أتشرب يا رسول الله؟ فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول الله.

فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له. فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله. قال: لا تحزن إن الله معنا. فلما أن دنا منا، وكان بيننا وبينه قيد رمحين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله - وبكيت. فقال ﷺ: «ما يبكيك؟» فقلت: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكن إنما أبكي عليك.

فدعا عليه رسول الله ﷺ: فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها.

---

(١) وقت الظهر.

(٢) أتحسس وأحرس وأراقب المكان.

(٣) قليل.

obeikandl.com

فوثب عنها. ثم قال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن ينجني مما أنا فيه: فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ منها سهماً، فإنك ستمر بإبلي وغنمي بمكان كذا.. وكذا..، فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إبلك وغنمك»، ودعا له رسول الله ﷺ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه، ومضى رسول الله ﷺ)[1].

مَن سراقة هذا، وما الذي أتى به خلف رسول الله ﷺ؟ وكيف عرف أنهم يسلكون طريق السواحل؟

سراقة يتحدث

ويقص كيف علم بمسلك رسول الله ﷺ، بعدما أخبره رجل لمحهم يسيرون بقرب الساحل، وكان ذلك الحديث في مرابع بني مدلج (قوم سراقة) فيقول: (جاء رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر «دية» كل واحد منهما: من قتله أو أسره. فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي - بني مدلج - أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أسودة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه)[2].

سراقة يبحث عن الدماء والدية

فحالما سمع حديث الرجل تهادت في مخيلته (مائة من الإبل)[3] تدفعها قريش لمن ينثر على الساحل دم رسول الله ﷺ ودم صاحبه.. تخيل سراقة تلك الإبل المائة، وهي تسيل بين الأودية نحوه ليضمها ويلحقها بما يملكه من الأغنام والإبل المنتشرة في طريق المدينة. لذلك حاول إخراس ذلك المتكلم وتثبيط عزيمة السامعين من قومه حتى لا يلحقوا بالمهاجرين فيخسر الإبل الجائزة. لقد قال سراقة لذلك الرجل: (إنهم ليسوا بهم، ولكن رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا، يبتغون ضالة لهم)[4].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٦١٥) والبيهقي (٢-٤٨٣) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أى رأيت أشخاصاً قرب الساحل.

(٣) جاء ذلك في حديث صحيح الإسناد عند البيهقي (٤٨٧/٢).

(٤) رواه البخاري (٣٩٠٦) مناقب الأنصار. أى ذهبوا يبحثون عن شيء ضاع لنا.

ويواصل سراقة حديثه فيقول: (ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة[1]، فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه[2] الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي، فركبتها، فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، فقمت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام[3]، فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات. ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان[4] ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية.. وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني[5]، ولم يسألاني، إلا أن قال: «أخف عنا» فسألته أن يكتب لي كتاب أمن. فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ)[6] بعد أن أعطى الأمان لذلك الباحث الذي يريد قتله وحز رأسه. معجزة مخيفة ورادعة ما حدث لسراقة، كان يظن نفسه قادرا على بث الرعب في نفسيهما، فعاد يطلب منهما الأمان.

إذاً فرسول الله ﷺ في حصن حصين، ولن تصل إليه أيدي المشركين، فلماذا يقول لسراقة: أخف عنا. لماذا يقولها وهو محاط بهذا الحشد من الخوارق، والجنود التي لا يعلمها إلا الله؟

---

(١) الأكمة: هي التل.

(٢) الزج: هو الحديدة التي في أسفل الرمح.

(٣) جمع الزلم، وكان أهل الجاهلية يستقسمون بالأزلام، وكانوا يكتبون عليها الأمر أو النهي ويضعونها في وعاء، فإذا أراد أحدهم أمراً دخل يده فيه وأخرج سهماً، (أي زلماً)، فإذا خرج ما فيه الأمر استمر في عمله، وإن خرج العكس رجع عنه.

(٤) هو الدخان أو الغبار.

(٥) أي لم يأخذا منه شيئاً.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٦).

إنه يقولها لأنه رسـول جاء بمنهج من عند الله ملائم للبشـر، وعلى البشر مهمة نشـره هنا وهناك، فبجهدهم ينتشـر، وعلى البشـر أن يركضوا هنا وهناك بحثاً عن الأسـباب الموصلة للنجاح، ورسـول الله ﷺ في هجرته يرسم خطاً لا يمكن أن ينتشر الإسـلام إلا بالسير عليه، ألا وهو فعل الأسباب مع عدم التوكل عليها، بل التوكل على الله وحده.

لقد هاجر ﷺ بعد أن خطط ورسم، وتكتم وتلثم، وسار في الليل والناس نيام، ثم جعل نتائج كل ذلك إلى الله سبحانه، إنه لم يتحدث لأبي بكر قبل الهجرة عن معجزات سـتحصل في الطريق، لأنه فعل الأسـباب كما طلب منه، ثم فوض أمره إلى الله، إن الهجرة تطبيق عملي لقوله ﷺ: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[1] فإذا أتقنه فقد انتهى دوره، وهذه طاقة البشـر لا يكلفهم الله فوق طاقتهم. فإن قبض عليه المشركون وقبضوا على صاحبه، فقد أديا ما طلب منهما ولا شيء عليهما، وإن أكرمهم اللـه بمعجزة أو خارقة، فذلك فضل من الله. لكن المسـلم يأثم إن لم يتقن عمله أملاً فـي حدوث معجـزة أو كرامة تقلب الأوضاع، وعليه أن ينتظر النكسـة في أية لحظة تطرق بابه. لقد استوعب رسول الله ﷺ وأصحابه المستضعفون هذه الحقيقة، فدعوا وأسروا واختفوا، ولاقوا ما لاقوا في سبيل ربهم، ولما أقفلت قريش أبواب مكة كلها في وجوههم.. تركوها لهم. غادروها وهي أحب البقاع إلى الله وإليهم. لقد وقف ﷺ يوماً (بالحزوراء في سـوق مكة فقال: إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أخرجـت منك ما خرجت وقال: علمت إنك خير أرض الله، وأحب أرض الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت)[2].

غادرها ﷺ بعد أن ضاقت به، وغادرها الصحابة نحو مدينة مفتحة الأذرع والأبواب.. للهاربين للخلاص.. للحاملين سـورة الإخلاص. غادروها إلى مدينة عطوف.. يحن فيها كل شـيء.. حتى الجذع يحن إلى رسـول الله ﷺ.. حتى الحجارة فيها بادلت الصحابة عشقاً. ألم يلتفت ﷺ إلى جبل أحد فيقول: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[3] إن الهجرة ترافق

---

(١) حديث حسن. انظر صحيح الجامع (١٤٤/٢).

(٢) إسـناده صحيح. رواه البيهقي (٥١٨.١٧/٢) من طريق الزهري قال: أخبرني أبو سـلمة ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزوراء في سوق مكة وهذا الإسناد صحيح وهو المحفوظ كما قال البيهقي.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري. ٤-١٤٩٨.

الشمس كل صباح.. تحيي الغرباء وتقول لهم: إذا أتقنتم أعمالكم تحولت مدن العالم إلى مدائن للحب والأنصار، وشغف الشجر والحجر بكم، كما شغف جبل أحد بأسلافكم.

واصل الرسول ﷺ وصاحبه المسير، وفي طريقهما شاهدا بعض الأغنام، وشاهدا بينهما الراعي، فطلبا منه السقيا؟

فقال: (ما عندي شاة تحلب، غير أن ههنا عناقاً حملت أول الشتاء، وقد أخرجت، وما بقي لها لبن، فقال ﷺ: «ادع بها». فاعتقلها النبي ﷺ ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب[1] وسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت، فوالله ما رأيت مثلك قط؟

قال ﷺ: «أو تراك تكتم علي حتى أخبرك؟» قال: نعم. قال ﷺ: «فإني محمد رسول الله»، فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ. قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك». قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وإنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال ﷺ: «إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا»)[2].

هذا الراعي المسكين نشأ في الصحراء حتى صار قطعة منها، تهتز ربيعاً وجمالاً عندما يغشاها المطر، وقد اهتز إيماناً عندما رأى المعجزات وحسن الأخلاق تجتاح مشاعره وتفتح عقله، ليفيق من سبات الإشاعات التي نشرتها قريش وأوصلتها إلى مسامعه. هذه الماعز التي لم يكن في ضرعها سوى الجفاف درت حليباً وأنزلت، أما هذا الرجل المطارد المتهم، الذي حلبها فلم يشرب رغم عطشه. لقد أسرت هذا الراعي أخلاق لم يعهدها، يحلب وهو نبي الله، ويسقي منهم دونه، ثم يشرب آخرهم، وهو الذي لو أراد لأدار الله له هذه الأرض ينتقي منها ما يشاء.

أسلم الراعي وآمن، وقرر ترك الصحراء والغنم ما دام بصحبة نبي، لكن خلق النبي ﷺ الكريم، وخوفه على أتباعه من الاضطهاد جعله يريثه إلى أجل لا يعلمه إلا الله، حتى يسمع بقيام دولة الإسلام.

فامتثل الراعي وصبر رغم شوقه ولهفه. امتثل هذا الراعي الذي أظنه:

---

(١) الذي حلب هو رسول الله ﷺ ، ثم سقى الجميع ثم شرب آخرهم.

(٢) إسناده صحيح. رواه البيهقي وأبو يعلى، وانظر تخريج الذي بعده فهو هو.

أبو معبد

الـــذي صادفه ﷺ في طريـــق الهجرة، فإنه (لما انطلق رســـول الله ﷺ وأبو بكر يســـتخفيان نزلا بأبي معبد، فقال: والله ما لنا شـــاة، وإن شاءنا لحوامل، فما بقي لنا لبن، فقال رســـول الله ﷺ: «فما تلك الشاة؟» فأتى بها. فدعى رسول الله ﷺ بالبركة عليها، ثم حلب عســـاً[1] فسقاه، ثم شـــربوا. فقال: أنت الذي يزعم قريش أنك صابئ؟ قال ﷺ: «إنهم ليقولون ذلك».

قال: أشـــهد أن ما جئت به حق. ثم قال: أتبعك؟ قال رســـول الله ﷺ: «لا». حتى تسمع أنا قد ظهرنا)[2].

وتجاوز رســـول الله ﷺ غنمات أبي معبد، بعد أن ترك أبا معبد ظلاً.. تركه فيئاً يســـتظل به المتعبون.. ربيعاً بعد أن كان حقلاً من الجفاف.. تركه مرشـــداً بعد أن كان يخبط في الظلام، وتحرك ﷺ لترحب به بعد مسافة ليست بالقصيرة:

خيمتا أم معبد

(أم معبـــد الخزاعية، وكانت برزة جلدة[3] تحتبي[4] بفناء القبة ثم تســـقي وتطعم فســـألوها لحماً وتمراً ليشـــتروا منها، فلم يصيبوا عندها شـــيئاً من ذلك، وكان القوم مرملين[5]، مسنتين[6]، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة[7]، فقال: ما هذا الشاة يا أم معبد؟

قالت: شـــاة خلفها الجهد عن الغنم. قال ﷺ: «بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال ﷺ: «أفتأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: بأبي أنت وأمي، نعم. إن رأيت بها حلباً

---

(١) العس: هو القدح الكبير.

(٢) ســـنده صحيح. رواه البزار كشـــف الأســـتار ٣٠١/٢ وغيره عن عبيد الله بن إياد، حدثنا إياد، عن قيس. عبيد الله صدوق ووالده ثقة التقريب ٣٦٩ و١١٦ وقيس صحابي.

(٣) هي التي لا تحتجب كالشابات رغم عفافها، ومعنى جلدة أي قوية أو جزلة.

(٤) الاحتباء: هو الجلوس مع ضم الفخذين إلى البطن بواسطة الذراعين.

(٥) أي نفذ ما عندهم كأنهم لصقوا بالرمل.

(٦) أصابتهم سنة أي القحط.

(٧) أي جانب الخيمة.

فاحلبها. فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح ضرعها بيده، وسمى الله عز وجل، ودعا لها في شـــأنها، فتفاجت[1] عليه ودرت واجترت، فدعا بإناء يريض الرهط[2]، فحلب فيها ثجاً[3]، حتى علاه البهاء[4]، ثم ســـقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا ثم شرب آخرهم ﷺ ثم أراضوا[5]، ثم حلب ثانياً بعد حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها وبايعها، ثم ارتحلوا عنها)[6].

عودة أبي معبد

بعد رحيل هؤلاء الأطهار (ما لبثت إذ جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً[7]، يتساوكن هزلاً، مخهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال: من أين هذا والشاة عـــازب حائـــل[8].. ولا حلوبة في البيت؟ قالت: لا واللـــه إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله: كذا.. و كذا. فقال: صفيه لي يا أم معبد.

قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة.. أبلج[9] الوجه، حســـن الخلق لم تعبه ثجلة[10]، ولم تزر به صعلة[11]، وسيم قسيم، في عينه دعج[12]، وفي أشفاره عطف[13]، وفي صوته صهل[14]، وفي عنقه سطع[15]، وفي لحيته كثاثة[16]، أزج أقرن[17]. إن صمت فعليه الوقار

---

(١) أي فرجت ما بين رجليها للحلب.
(٢) يريض: أي يروي.
(٣) ثجاً: أي لبناً سائلاً كثيراً.
(٤) هو بريق رغوة الحليب.
(٥) أي شربوا عللاً بعد نهل أي الشرب الثاني.
(٦) انظر تخريجه في نهاية الخبر.
(٧) هزيلة.
(٨) أي لم تحمل.
(٩) مشرق الوجه مسفر.
(١٠) ضخامة البطن واسترخاؤه.
(١١) النحافة.
(١٢) اشتد سوادها وبياضها.
(١٣) الأشفار: طرف جفن العين التي ينبت منها الشعر، أي إنها طويلة حتى انعطفت.
(١٤) وقيل: صحل أي أنه حاد الصوت.
(١٥) سطع: أي طال عنقه.
(١٦) اجتماع وكثرة.
(١٧) أي لا قليل ولا كثير.

obeikandl.com

وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه من قريب، حلو المنطق.. فصل لا نذر ولا هذر، كأنه منطقه خرزات نظم تحدرن، ربعة[1].. لا بائن من طول، ولا تقتحمه عين من قصر[2]، غصن بين غصنين، هو أنظر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به.. إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود[3]، ولا عابس ولا معتد.

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره. ما ذكر بمكة «ولقد هممت بأن أصحبه» ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

فأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون ولا يدرون من صاحبه:

جزى الله رب البيت خير جزائه ... رفيقين قالا خيمتي أم معبد

هما نزلاها بالهدى واهتدت به ... فقد فاز من أمسى رفيق محمد

فيال قصي ما زوى الله عنهم ... به من فعال لا تجازى وسؤدد

ليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشاة حائل فتحلبت ... عليه صريحاً صرة الشاة مزبد

فغادرها رهناً لديها لحالب ... يرددها في مصدر ثم مورد

وأصبح صوت بالمدينة بين السماء والأرض يسمعون ولا يرون من يقوله)[4].

---

(١) وسيط القامة.

(٢) أي لا تتجاوزه العين إلى غيره احتقاراً.

(٣) مطاع في قومه يسرعون لخدمته.

(٤) رواه أبو نعيم في الدلائل - واللفظ له - (١-٣٣٧) والحاكم (٣-٩) والطبراني (مجمع الزوائد ٦/٥٨) وابن سعد (١/٢٣٠). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهو يعتبره صحيحاً لأسباب هي قوله: إن نزول المصطفى ﷺ بالخيمتين متواتر في أخبار صحيحة ذوات عدد، وإن الذين ساقوا الحديث على وجهه أهل الخيمتين من الأعاريب الذين لا يتهمون بوضع الحديث والزيادة والنقصان، وقد أخذوه لفظاً=

سمع شاعر الحياة الجديدة حسان بن ثابت تلك الأبيات وهو في يثرب، فهاجت شاعريته، وأطلق الشعر يخطف ما لدى كفار قريش من فضائل ويحملها أنواراً نحو مدينة الإسلام الجديدة:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم ... وقدس من يسرى إليه ويغتدي

ترحل عن قوم فضلت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد

هداهم به بعد الضلالة ربهم ... فأرشدهم من يتبع الحق يرشد

وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا ... عمايتهم هاديه كل مهتدي

وقد نزلت منه على أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد

نبي يرى ما يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله في كل مسجد

وإن قال في يوم مقالة غائب ... فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد

ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد

ليهن بني كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

وبعد أن ودع ﷺ أم معبد أحث السير، وربما صادفه في مسيره آخرون، فكان يواجه كل شخص بأسلوب مناسب، فإن كان المار ممن يخشى منه تسرب الأخبار.. تكفل أبو بكر بالإجابة. ولذلك يقول أحد الصحابة: (أبو بكر شيخ يعرف، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب الحاسب إنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني

= بعد لفظ عن أبي معبد وأم معبد، ومنها أنه له أسانيد كالأخذ باليد أخذ الولد عن أبيه والأب عن جده لا إرسال ولا وهن في الرواة، ومنها إن الحر بن الصباح النخعي أخذه عن أبي معبد كما أخذه ولده عنه، فأما الإسناد الذي رويناه بسياقه: الحديث عن الكعبين فإنه إسناد صحيح عال للعرب الأعاربة، وقد علونا في حديث الحر بن الصباح هذا ما قاله الحاكم رحمه الله. لكن هناك ملاحظات على قوله رحمه الله منها: أن الحديث حسن لكن ليس بهذا النص لشدة ضعف طرقه... خاصة حديث الحر بن الصباح ففي سنده متهم. ومنها: أن الشعر المذكور وأن قائله من الجن ضعيف ويحتاج إلى طرق أخرى تقويه. لكن القصة إجمالا قوية برواية البيهقي والبزار اللتين ذكرهما ابن كثير في السيرة (٢/٢٥٨) وهي رواية مختصرة.

سبيل الخير)[1] الذي يصل الدنيا بالآخرة، ويحطم الأبواب بينهما، فتشع أنوار الجنة في قلوب المؤمنين ودروبهم.. أينما حلوا أو ارتحلوا.

محطات

مر ﷺ ورفقته بمحطات عديدة تذكرها عائشة جيداً فتقول رضي الله عنها وهي تتحدث عن زوجها وأبيها بعد أيام الغار: (هدأت عنهما الأصوات، وأتاهما أن قد سكت عنهما، جاءهما صاحبهما ببعيرهما، فانطلقا وانطلق معهما عامر بن فهيرة يخدمهما ويعينهما، يردفه أبو بكر ويعقبه على رحله، ليس معهما إلا عامر بن فهيرة وأخو بني عدي يهديهما الطريق:

فأجاز بهما «في أسفل مكة»، ثم مضى بهما حتى «حاذى بهما الساحل أسفل من عسفان» ثم استجاز بهما حتى عارض الطريق بعدما جاوز «قديداً» ثم سلك «الخرار»، ثم أجاز على «ثنية المرة» ثم أخذ على طريق يقال لها «المدلجة بين طريق عمق وطريق الروحاء» ثم توافوا طريق «العرج» وسلك ماء يقال له «الغابر عن يمين ركوبة» حتى يطلع على بطن «رئم» ثم جاء حتى قدم المدينة على «بني عمرو بن عوف» قبل القائلة)[2].

إذاً فنهاية تلك المحطات هي محطة بن عمرو بن عوف، لكن لماذا لم يذهب ﷺ إلى يثرب مباشرة.. لماذا مال إلى بلدة بني عمرو بن عوف المشهورة بـ (قباء). ما شعور الأنصار وهم ينتظرونه على مشارف يثرب، فتأتيهم الأخبار أن نبيهم في قباء الآن.. أسئلة ملحة والإجابة عند نبي الله ﷺ الذي ودع مكة ولكن.

النبي ﷺ يودع مكة

وَدَّع حبيبته وهي لا ترد، ولو أجابت لأبكت من حولها.. ودع حبيبته.. تركها وهو كاره.. حالت الجاهلية بينه وبينها.. لم يستطع البقاء بين أبياتها وجدرانها، فحملها في

---

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. رواه البخاري (٣٩١١).

(٢) سنده صحيح رواه ابن جرير ٢-٣٧٥: حدثنا علي بن نصر وحدثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قالا: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا أبان بن العطار، حدثنا هشام بن عروة عن عروة عن عائشة، وعلي وعبد الوارث ثقتان. وعبد الصمد صدوق ٣٥٦ وأبان ثقة ٨٧ وبقية السند معروف وقد توبع هشام ومن بعده عند الحاكم (٢-٨).

قلبه وارتحل، وتمر أيام وأعوام، ويكبر ذلك الحب، ويزداد به الشـــوق، فيقسم بالله لها أنه ما زال يحبها: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلي، ولولا أني أُخْرِجتُ منك ما خرجت)[1]. (ما أطيبك من بلدٍ وأحبَّكِ إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك)[2].

لم يستبدل ﷺ حباً بحب، بل أضاف حباً إلى حب.. وهو في طريقه الآن إلى يثرب.. يثرب!! لا، إنها ليست يثرب، فلا يثرب بعد اليوم.. لقد وهبها قلبه، ووهبها اسماً جديداً.

اسم جديد

فما ذلك الاسم؟ يقول ﷺ: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب! وهي «المدينة» تنفي الناس[3] كما ينفي الكير خبث الحديد»[4].

إذاً فهي منذ الآن ستدعى: (المدينة).. المدينة المنورة بالحب والأشواق والعناق، أما أهلها، فعلى طريق مكة يترددون.. ينتظرون (يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة)[5].. فرحوا بأصحابه واستقبلوهم، وفتحوا لهم بيوتهم وصدورهم و(لما سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ، وتوكفوا[6] قدومه، كانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى الحرة ينتظرونه، حتى تغلبهم الشـــمس على الظلال ويؤذيهم حر الظهيرة، فإذا لم يجدوا ظلاً دخلوا، وذلك في أيام حارَّة)[7].

هـــذه هي المدينة المشـــتاقة وهؤلاء هم أهلها، أما رســـول الله ﷺ، فقبل وصوله، وفي مســـيره ذلك يلتقي بشابٍ يحبه.. يلتقي بشاب من أبطال الإسلام، إنه زوج (ذات النطاقين) زوج أســـماء بنت أبي بكر الصديق واسمه: الزبير بن العوام، فهل كان قادماً

---

(١) حديث صحيح. رواه أحمد ٣-٣٠٥ وغيره من طرق عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عدي رضي الله عنه. أبو سلمة والزهري تابعيان ثقتان.

(٢) حديث صحيح رواه الترمذي وغيره. صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني (٢/٩٧١).

(٣) أي تنفي الخبيث من الناس.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (١٨٧١) ومسلم ٢-١٠٠٦ والبيهقي (٢-٥١٩).

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦).

(٦) أي توقعوه وسألوا عنه.

(٧) سنده قوي رواه ابن إسحاق (تاريخ الطبري ١-٥٧١) حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عويم بن ســـاعدة عن رجال من الصحابة. ومحمد ثقة ٤٧١ وعبد الرحمن ولد على عهد النبي ﷺ وروايته عن الصحابة ويشهد له ما قبله.

من المدينة؟.. لا. لقد كان في الشام.. سافر مع قافلة من قوافل الصيف ثم عاد، وفي طريق عودته (لقي رسول الله ﷺ في ركب من المسلمين، كانوا تجاراً بالشام قافلين إلى مكة، فعارضوا رسول الله ﷺ، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً)[1]. قبل ﷺ الهدية من ابن عمته الزبير، ولبس وصاحبه الثياب، وأقبلا على المدينة.. يختلط بياض ثيابهم ببياض السراب، لكن بعد أن أحرقت الشمس المنتظرين، فعادوا بعد انتظار طويل لبيوتهم.

أقبل رسول الله ﷺ وأبو بكر، فلم يرهما أحد من الأنصار.. لم يرهما أحد من المهاجرين، ولا حتى من المشركين عابدي الأوثان، لكن يهودياً رآهما.. كان فوق حصن قومه، واليهود أناس لا يعيشون إلا في حصون أو حاراتٍ مغلقةٍ عليهم، وما زال جزء منهم كذلك إلى أيامنا هذه. ربما كانوا يعتقدون أنهم أبناء الله وأن بقية البشر لا يستحقون شرف الاتصال بهم. سندع اليهود وما يعتقدون لنتابع موقف ذلك اليهودي مما رأى وماذا فعل؟ وماذا جرى للأنصار بعد ذلك؟ وهل دخل ﷺ المدينة أم تريث أم..؟

ماذا حدث.. ماذا حدث

لم يتجه ﷺ إلى المدينة مباشرة.. هل خاف من يهود؟ هل كان خائفاً من شيء؟ لا، لكنه مال بخط سيره نحو مكان قريب من المدينة يسمى (قباء) ونزل على أناسٍ من الأنصار يقال لهم (بنو عمرو بن عوف) وهذه هي القصة:

(سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أُطم[2] من آطامهم لأمر ينظر فيه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين[3] يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب.. هذا جدكم[4] الذي تنتظرون.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٠٦).

(١) الأطم: هو الحصن.

(٢) أي عليهم الثياب البيض التي كساهم إياها الزبير.

(٣) أي حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه (السيرة الشامية ٣/٣٨٤).

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في «بني عمرو بن عوف» وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار - ممن لم ير رسول الله ﷺ - يحيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك)[1]. أما الأنصار، فقد تحولوا إلى مشاعر تحمل رسول الله ﷺ.. تقله تظله، وتتوهج من حوله، أما قباء فـ:

كيف كانت قباء

كانت تنعم بمحمد ﷺ.. تحتضنه كأمه.. تفخر به على من حولها حتى انتشر الخبر وشاع فوصل إلى يهودي آخر فلم يصبر، لقد أطلق قدميه للريح والفزع.. يتجه بهما نحو ابن عم له كان يجلس بين نخلٍ له فقال: (يا فلان، قاتل الله بني قيلة[2]، والله إنهم لمجتمعون الآن بقباء على رجلٍ قدم من مكة يزعمون أنه نبي)[3].

لا أعرف ما حدث لليهودي، لكنني أعلم ما حدث لأحد عبيده.. كان عبده الكادح الحزين فوقه.. فوق نخلةٍ في رأس عذق يعمل.. يتصبب منه العرق والفزع.. سمع الخبر فأخذته رعدةٌ هزته وهزته حتى كاد يسقط من على العذق، لكنه تماسك حتى انحدر منها، وعندما لامست أقدامه الأرض توجه كالفرح نحو حامل الخبر فقال له: (ماذا تقول.. ماذا تقول..؟)[4] صمت اليهودي الذي حمل الخبر ولم يجبه. لكن سيده أجابه عن هذا السؤال إجابةً يهوديةً.. أجابهُ لكمةً شديدة ثم قال له: (ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك)[5]. تجرع العبد المسكين الآلام والقهر، وأخرج من صدره اعتذار المساكين وقال: (لا شيء، إنما أردت أن أستنبئه عما قال)[6].

وعندما خيم الليل على مرابع بني عمرو بن عوف وقباء.. كان شبح ذلك العبد المسكين يتسلل كالظلام في الظلام، وبين طرقاتها المظلمة متخفياً خائفاً.. يتسلل حتى

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٩٠٦).
(٢) قيلة: هو اسم الجدة الكبرى للأنصار.
(٣) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.
(٤) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.
(٥) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.
(٦) حديث صحيح طويل سيمر معنا وهذه مقاطع منه.

obeikandl.com

ظفر بمجلس رسـول الله ﷺ وأصحابه وأنصاره. كانت آثار العبودية والقيود والسفر والسنين تجلد وجهه وظهره، وتوشك أن ترتحل أو يرتحل.

دخـل هذا الكادح على رسـول الله ﷺ ثم قال: (إنه قـد بلغني أنك رجلٌ صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شـيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، فقربته إليه فقال رسـول الله ﷺ لأصحابه: كلوا. وأمسـك[1] يده فلم يأكل.

فقلت في نفسي: هذه واحدة)[2].

ثم انصرف ذلك الرجل الغريب بعد أن حصل على واحدة! عاد من حيث أتى.. عاد إلى سيده اليهودي. ترى هل أرسله سيده، أم أنه ذهب من تلقاء نفسه؟ وما معنى قوله: هذه واحدة؟ ولماذا انصرف بهذه السـرعة؟ لغز محير هذا المسكين القادم من العبودية والمجهول، ولعل الأيام تكشف لنا مزيداً من أسراره.

ذهب المسكين، وذهب الليل وراءه، ومرت أيام (فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشـرة ليلة، وأسس المسـجد، وصلى فيه رسول الله ﷺ)[3] وصلى فيه أصحابه، وبشـر كل من يأتي إلى هذا المسـجد ببشـرى قالها فيما بعد: (صلاة في مسجد قباء كعمرة)[4].

وبقي ﷺ أربع عشرة ليلة في قباء بين قلوب أهلها الفسيحة، ولما تحرك قلبه نحو المدينة.. بعث رسـولاً من أهل البادية إلى أخواله بني النجار يخبرهم بقدومه، فجاءوا متزينين بالفرح والسلاح.

يقول أحد الأنصار: (لما قدم رسـول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة، في حي يقال لهم: «بنو عمرو بن عوف» فأقام فيهم «أربع عشـرة ليلة» ثم أرسـل إلى ملأ بني النجار، فجاءوا متقلدي سيوفهم وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله)[5].

---

(١) أي كف يده ولم يأكل ﷺ لأنه لا يأكل من الصدقة.
(٢) جزء من حديث طويل صحيح سيمر معنا.
(٣) حديث حسن عدا المحذوف رواه البخاري (٣٩٠٦).
(٤) حديث صحيح رواه ابن ماجة ١-٤٥٣ من طريقين قويين عن أسيد وسهل.
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٣٢) ومسلم.

ويقــول رديفه على الناقــة أبو بكر رضي الله عنه: (ومضى رســول الله ﷺ وأنا معــه حتــى قدمنا المدينة ليلاً، فتنازعه القوم: أيهم ينزل عليه، فقال رســول الله ﷺ: «إني أنزل الليلة على بني النجار، أخوال بني عبد المطلب أكرمهم بذلك»، وخرج الناس حــين قدمنا المدينة فــي الطريق وعلى البيوت، والغلمان والخدم يقولون: جاء رســول الله ﷺ.. جاء محمد.. الله أكبر جاء محمد.. جاء رسول الله ﷺ، فلما أصبح انطلق حيث أمر)[1] كانت أمسيةً صاخبةً بالهتاف للأضياف.. أمسية صاخبة فشمس محمد تجوب شوارع المدينة.. المدينة تعانق هذا النور المنساب من قباء.. المدينة كلها.. السلاح والرجال والنساء والأطفال... وللأطفال طريقتهم الخاصة في التعبير عن حبهم لمحمد ﷺ. أشرقت الشمس بعد أن نهض الجميع للصلاة.. أشرقت الشمس والأطفال بوجه محمــد ﷺ حيث كان يتحرك نحو المكان الذي أمر به.. كان صباحاً منعشــاً وجميلاً، وكان موكبه ﷺ يتهادى بين القلوب والبيوت...

الأطفــال يركضون.. يقفزون.. يهتفون، وتلــك العيون البريئة تبحث خلف الزحام عن صاحب الناقة.. كان الأطفال لوحة من مطر وبراءة.

أنس بن مالك أحد أولئك الأطفال.. يصف فرحته وشــغفه وركضه معهم فيقول: (إني لأسعى في الغلمان يقولون: جاء محمد..

وأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون: جاء محمد..

فأسعى.. ولا أرى شيئاً.

حتــى جاء النبــي ﷺ وصاحبه، فكمنا في بعض جدر المدينــة، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية ليؤذن بهما الأنصار. فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهمــا فقالوا: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رســول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخــرج أهل المدينة، حتــى إن العواتق[2] لفوق البيوت يتراءينــه يقلن: أيهم هو؟.. أيهم هو؟فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذ)[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٥٠٦/٢).

(٢) أي الفتيات المراهقات.

(٣) سنده صحيح. رواه أحمد ٣-٢٢٢ حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس. هاشم يلقب بـ قيصر وهو ثقة التهذيب ١١-١٨ وسليمان ثقة، وثابت البناني تابعي ثقة. والحديث صححه الذهبي في سيرته ٣٣٣.

ويقول: (شـهدت يوم دخل النبي ﷺ، فلم أرَ يوماً أحسـن ولا أضوأ منه)[1]، وعبر أنس عن ذلك اليوم بحروف تنبض بالمشاعر فقال: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء)[2].

مشاعر..مشاعر

المدينة في تلك اللحظات كانت تتبختر بالمشـاعر.. تتزين بالإسلام.. كانت مدينة منورة بلقاء الحبيب الذي طال الشـوق إليه. أحقاً رسـول الله ﷺ في المدينة.. يمشي في شـوارعها وتصافحه قلوبها وأرواحها.. لحظات يتمنى كل مسـلم أن يعيشها، وأن يسكب في حضرتها شيئاً من الدموع.

لقـد كان الموكب يتحرك ببـطء، فطريقه مزدحم بالقلوب والدموع، وابتسـامات الأطفال والتفاتاتهم البريئة السـعيدة. أبو بكر كان أسـعد الناس وأحظى الناس بعد رسـول الله ﷺ بهذا الحب والاحتفال.. يحدثنا فيقول: (ومضى رسـول الله ﷺ وأنا معه حتـى قدمنا المدينة، وتلقاه الناس فخرجوا في الطرق وعلى الأناجير[3]، واشـتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون: الله أكبر جاء رسول الله.. جاء محمد)[4].

(جاء رسول الله.. جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد.. الله أكبر جاء محمد)[5].. أحد أطفال الأنصار المبتهجين يتحدث، واسمه البراء بن عازب يقول: (جاء رسول الله ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء قط فرحهم به، حتى رأيت الولائد[6] والصبيان يسعون في الطرق يقولون: جاء رسول الله)[7].

وعبر الصحابة القادمون من أرض النجاشـي عن فرحهم بمحمد ﷺ بأسـلوبهم المميز. أنس بن مالك ذلك الطفل السعيد.. طاف المدينة، وطاف حول الموكب، وشاهد

---

(١) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٥٠٨ وأحمد ٣-٢٤٠ من طريق حماد عن ثابت عن أنس.
(٢) حديث صحيح. انظر صحيح ابن ماجة (١-٢٧٣) للإمام الألباني.
(٣) السطوح.
(٤) حديث صحيح. متفق عليه ورواه أحمد ١-٢واللفظ له.
(٥) جزء من رواية البخاري ومسلم.
(٦) أي البنات.
(٧) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٨٨٦.

فرح أهلها، ووصف فرح الصحابة من أهل الحبشة فقال: (لما قدم رسول الله ﷺ لعبت الحبشة بحرابهم فرحاً بقدومه)[1] ولم يكن الرقص هو الأسلوب الوحيد في التعبير.. كان هناك الغناء بمحمد ﷺ، وبجوار محمد.

الغناء والدفوف والمشاعر شاهدها ﷺ فماذا فعل؟ وماذا قال ﷺ لتلك الفتيات؟

أنس بن مالك أيضاً يحدثنا عن ذلك فيقول: (مر رسول الله ﷺ بحي من بني النجار وإذا جوارٍ يضربن بالدفوف «ويتغنين ويقلن»:

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

فقال النبي ﷺ: «الله يعلم أن قلبي يحبكن»)[2] يا لهذا النبي ما أعظمه، وما أبسطه وأرق مشاعره التي يعلنها للصغير وللكبير.. في البيوت وعلى الطرقات، بل إنه يعلن حبه حتى على الجبال القاسية من حوله.. يمر ﷺ من عند جبل أُحد بالمدينة فيقول: (هذا جبل يحبنا ونحبه)[3] نبي الله يحب المدينة وأهلها، والمدينة وأهلها.. أشجارها وجبالها يحبون الله ورسوله.. الكرم يسيل، و الدماء تسيل فرحاً به ﷺ، هذا أحدهم يقول: (لما قدم ﷺ المدينة نحرتُ جزوراً)[4].

---

(١) صحح إسناده الإمام الألباني في صحيح أبي داود ٣-٩٣٠) ورواه أحمد ٣-١٦١ من طريق عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ثابت عن أنس. ورجاله ثقات لكن فيه ضعفاً لأن رواية معمر عن ثابت ضعيفة كما قال ابن معين: إذا حدثك معمر عن العراقيين فخالفه إلا عن الزهري وابن طاوس. وقال مرة: حديث معمر عن ثابت وعاصم وهشام وهذا الضرب مضطرب كثير الأوهام. فإن لم يكن لدى الشيخ ناصر طريق أخرى فهو ضعيف.

(٢) سنده صحيح. رواه البيهقي ٢-٥٠٨ وابن ماجة (الصحيح ١-٣٢٠) واللفظ للبيهقي عدا ما بين المعقوفتين فلابن ماجة... وسنده: عيسى بن يونس، عن عوف الأعرابي، عن ثمامة عن أنس.. وعيسى ثقة. انظر التقريب ٤٤١ وعوف بن أبي جميلة ثقة أيضاً. التقريب ٤٣٣ وثمامة بن عبد الله بن أنس بن مالك تابعي ثقة روى عن جده.

(٣) حديث رواه البخاري (٢٨٨٩).

(٤) سنده صحيح. رواه أحمد (الفتح الرباني ٢٠/٢٩١) حدثنا وكيع، حدثنا شعبة عن محارب ابن دثار عن جابر... وهذا سند كالذهب كله أئمة ثقات لا يسأل عنهم وهو متصل.

ويواصل موكب الحب مسيره في شوارع المدينة وسط مهرجان من السعادة.. زحامٌ من البهجة يحيط برسول الله ﷺ.. اشتد الزحام (فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرقات ينادون: يا محمد.. يا رسول الله، يا محمد.. يا رسول الله)[1].

في المدينة كانت القلوب بيوتاً، وكانت البيوت قلوباً.. كانت الأيدي تمتد إلى الزمام، والعيون البراقة تحتضنه وتعانقه.. تحاول الارتواء منه، فتزداد عطشاً ولهفةً، وتواصل الركض والنداء حتى..

توقفت الناقة

(فقال نبي الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟»

فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله: هذه داري.. وهذا بابي.

فقال ﷺ: «اذهب فهيئ لنا مقيلاً».

فذهب فهيأ لهما مقيلاً، ثم جاء فقال: يا نبي الله، قد هيأت لكم مقيلاً.. قوما على بركة الله فقيلا)[2]. وحل ﷺ في دار أبي أيوب وقلب أبي أيوب.. الكل يغبطه.. المدينة كلها تغبطه.. تثمن الشرف الذي حل بين جدران منزله.. المدينة كلها إلا عيوناً كانت تتأمل من بعيد.. وقفت كما وقف عمر بن الخطاب وهو يرقب مشهد النازحين إلى أنهار الحبشة، لكن هذه العيون المتلصصة لم تكن حزينة كحزن عمر، ولا نادمة كندم عمر.. إنها منغمسة في دبق الأحقاد الأسود.. من بين هذه القلوب قلب رجل اسمه:

عبد الله بن أُبي بن سلول
من عبد الله هذا.. وما قصته..؟

كان بين الأوس والحروب حروب مريرة، وثارات أوشكت على إفنائهم، وكان بين تلك الحروب فترات من التعب، والهدنة والفتور.. تتطمر معها جمرة الحرب تحت رماد

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الزهد - حديث الهجرة).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ للبيهقي (٥٢٨/٢).

من التعقل أحياناً، والملل أحياناً، أو التحفز للانقضاض أحياناً أخرى. وكانت السنوات التي بايعوا فيها الرسـول ﷺ سنوات من الركود.. كانت المدينة فيها ترقد على بركان هادئ من الثارات والدماء، وفي تلك السنوات تصالح الطرفان مبدئياً على تتويج رجل اسـمه عبد الله بن أبي بن سـلول، ليكون زعيماً ليثرب، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. فرغم الاحتفاء بالهدنة وحقن الدماء، إلا أن المدينة كانت لا تتنفس ابن أبي سـلول في هوائها، فهو مجرد هدنة هشةٍ، لا أكثر. وقد سئموا الهدن الهشة.

لقد كانت أجواء المدينة مشبعة بالقادم.. مرطبة بالانتظار.. المدينة وَتَنِيُّوها ويهودها يشـعرون بغدٍ هابط لا يحمل على جناحه رجلاً مؤقتاً كابن سـلول، أما اليهود فكانوا ينتظرون نبياً يفنون به العرب والوثنيين، ويخلصهم من هذا الشـتات المخيف. تأثر بهم بعـض الوثنيين من أهل المدينة فكانوا ينتظرونه، ويريدون أن يسـبقوا اليهود إليه حتى ولو اضطروا إلى مزاحمة اليهود في حصونهم، وكان من هؤلاء المنتظرين ثلاثة من بني هذل هم:

أسد وأسيد وثعلبة

ثلاثة من الشـباب ليسوا من اليهود، انصهروا مع اليهود ليفوزوا معهم بهذا النبي القادم كالصباح، ويحدثنا عنهم رجلٌ من يهود بني قريظة.. رجل عاش مع أسد وأسيد وثعلبة في حصون قريظة.. يحدثنا ويحدث رجلاً جالساً بقربه اسمه عاصم فيقول له: (هل تدري ما كان علامة إسلام ثعلبة بن سعنة، وأسيد بن سعنة، وأسد بن عبيد - نفرٌ من بني هذل ليسـوا من بني قريظة ولا بني النضير؟ (كانوا فوق ذاك) نسبهم من بني (هذل) أتوا بني قريظة، كانوا معهم في الجاهلية ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟

قال عاصم: قلت: لا.

قال: فإن رجلاً من يهود أهل الشام يقال له: (ابن الهيبان)، قدم علينا قبل الإسلام بـ (سـنتين) فحل بـين أظهرنا، والله مارأينا رجلاً قـط لا يصلي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط المطر قلنا له: يا ابن الهيبان قم فاستسـق لنا، فيقول: لا واللـه حتى تقدموا بين يـدي مخرجكم صدقة. فيقولون: كم؟ فيقول: صاعاً تمراً، (أو مدين من شـعير) عن كل إنسـان. فنخرجها، فيخرج بنا إلى ظاهر حرتنا، فيستسقي

لنا، فوالله ما يبرح من مجلسه حتى يمر السحاب السراح سائلة، ونسقى به، ففعل ذلك غيـــر مـــرة ولا مرتين ولا ثلاثاً، ثم حضرته الوفاة، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشـــر يهـــود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض الجوع والبؤس؟ قلنا: الله أعلـــم. قال: فإني قدمت إلى هذا البلد لتوكف خـــروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا يســـبقنكم إليه يا معاشر اليهود أحدٌ)[1].

لكن الأنصار ســـبقوا اليهود فأســـلموا، ودعوا رســـول الله ﷺ إلى المدينة، واســـتقبلوه اســـتقبالاً كالحلم، فانهارت أحلام عبد الله بن ســـلول بالزعامة، بعـــد أن أدرك أهل المدينة أن وحدتهم لن تدوم بزعامته، ولن تمتد تلك الزعامة في الأعماق والزمان إلا برســـالة يخلع الجميع كل ما عليهم ليلبسوها، فتنحوا عنه، وامتدت الأيدي والقلوب إلى الله ورسوله. وكأني بابن ســـلول يتمنى لو لم يطل به العمر ليرى هذا الاحتفال الجميل، وموقف ابن ســـلول هذا موقف قاصر، فقد كان بإمكانه أن يصبح زعيماً وعظيماً وخالداً لو صافح رســـول الله ﷺ، لكنه أبى وتولى. هذا هو ابن سلول فهل هناك من يشاركه هذا الشعور؟.

أجـــل.. هناك اليهود الذين تركـــوا أرض الخمر والخمير من أجله، فهم ينتظرونه منذ ســـنوات وسنوات، لكن ما الذي حدث؟ كيف ينتظرونه، فإذا رأوه وتحققوا أنه هو رفضوه وعادوه؟

طفلة بريئة لم تلوثها أحقاد اليهود اسمها (صفية بنت حيي بن أخطب) تحدثنا عن موقفهم وســـبب عداوتهم، فوالدها زعيم من زعماء يهود، وعمها أيضاً زعيم، أما هي فكانت أحب أولادهم على الإطلاق.. يهشون للقائها.. يبشون في وجهها ويبتسمون، إلا في ذلك اليوم.. ذلك اليوم الذي تذكره صفية جيداً فتقول: (لم يكن من ولد أبي وعمي أحدٌ أحب إليهما مني.. لم ألقهما قط مع ولد لهما أهش إليهما إلا أخذاني دونه.

فلما قدم رســـول الله ﷺ قباء، ونزل قرية بني عمرو بن عوف، غدا إليه أبي وعمي «أبو ياســـر بن أخطب» مغلســـين، فوالله ما جاءانا إلا مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢/٨٠) وأبو نعيم في الدلائل (١/٨١) واللفظ له عدا مـــا بين المعقوفين. حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة، عن شـــيخ من بني قريظة. عاصم تابعي ثقة وعالم جليل.. التقريب ٢٨٦ وشيخه صحابي من بني قريظة.

كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينى[1]، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليَّ واحد منهما، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم. والله. قال: تعرفه بعينه وصفته؟ فقال: نعم والله. قال: فماذا في نفسك منه؟. قال: عداوته والله ما بقيت)[2].

ولكن لماذا هذه العداوة.. لماذا هذا الفتور والإحباط؟

إنها العنصرية، فهذا الرجلان يمثلان خطاً يسلكه معظم اليهود.. اليهود المغضوب عليهم، وقد غضب الله عليهم لأنهم يعرفون الحق وينكرونه. جاءهم عيسى فأنكروه، بل حاولوا قتله، وها هو محمد ﷺ بين أيديهم.. يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لكنهم يرفضونه، لإن محمداً عربي وليس من أبناء قبيلة (إسرائيل).. إذاً فهو مرفوض، وكما رفض حيي بن أخطب وأخوه الدخول في الإسلام، فقد عاند وكابر يهودي آخر مثلهما.. تنصل من كل وعوده السابقة لليهود ولأهل المدينة، فما هي وعوده السابقة؟ وكيف تنصل منها؟

تلك قصة حضرها طفل آخر مضطجع بفناء أهله، حفظها لنا ثم قصها علينا بعد قدوم رسول الله ﷺ للمدينة.

يوشع يرفض الإسلام

اسم هذا الطفل (سلمة بن سلام بن وقش) وهو يقول: (كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل.. فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل -وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً عليَّ فروة لي مضطجع فيها بفناء أهلي[3] - فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار.. فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان.. أو ترى هذا كائناً، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟

---

(١) مشيٌ فيه فتور وضعف.

(٢) في سنده ضعف، رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو نعيم والبيهقي (٢-٥٣٣) وفي سنده جهالة شيخ شيخ ابن إسحاق عبد الله بن أبي بكر وقد ورد اسم هذا الشيخ عند أبي نعيم وهو جد عبد الله بن أبي بكر... واسمه محمد بن عمرو بن حزم وله رؤية وليس له سماع إلا من الصحابة (التقريب ٢-١٩٥) وحفيده تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين (١-٤٠٥ التقريب) وله شاهد عن الزهري عند البيهقي (٢-٥٣٢).

(٣) المتكلم هو سلمة بن سلام.

قال: نعم.. والذي يحلف به، (لوددت أن حظي من تلك النار أن توقدوا أعظم تنور في داركم فتحمونه، ثم تقذفوني فيه ثم تطينون علي، وأني أنجو من النار غداً[1])[2].

قالوا: ويحك يا فلان فما آية ذلك؟ قال: نبيٌّ مبعوث من نحو هذه البلاد. وأشار بيده إلى نحو مكة واليمن. قالوا: متى تراه؟

فنظر إليَّ وأنا أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا[3]، فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً. فقلنا: ويحك يا فلان، ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ولكن ليس به (وكان يقال له يوشع)[4].

وطفل آخر اسمه (محمد بن سلمة) يروي حجم الكراهية اليهودية للآخرين، ورفض الحق إن لم يكن مصدره من بني إسرائيل فيقول: (لم يكن في بني عبد الأشهل إلا يهودي واحد يقال له «يوشع» فسمعته - وإني لغلام في إزار يقول: قد أظلكم خروج نبي يبعث من نحو هذا البيت. ثم أشار بيده إلى «بيت الله» فمن أدركه فليصدقه، فبعث رسول الله ﷺ فأسلمنا، وهو بين أظهرنا لم يسلم حسداً وبغياً)[5] ولم يقتصر اليهود على ذلك، بل أنكروا أن يكون هو النبي المنتظر. قاموا بطمس أسمائه المكتوبة في التوراة، لكن بقيت كلمات حتى اليوم لا تنطبق إلا على محمدٍ عليه السلام، مثل هذه العبارة الموجودة الآن في التوراة المحرفة والتي تقول: (وحي يأتي من بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب، قابلوا الهارب بخبزه، فهو قد هرب من السيوف والأقواس وشدة الاضطهاد. ويقول الرب أنه خلال سنة سوف يتحطم مجد عدنان جد العرب، وسوف يتلاشى بقية أبطال أبناء عدنان)[6].

---

(١) أي من شدة نار جهنم أعاذنا الله منها يتمنى أن يوضع في أعظم فرن في الدنيا ثم يطبق عليه ويحرق فيه أهون عليه من دخول نار جهنم.

(٢) ما بين المعقوفين لفظ البيهقي.

(٣) أي أن هذا اليهودي حي يرزق عند دخول رسول الله ﷺ المدينة.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢-٧٨) حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن سلمة: صالح تابعي ثقة التقريب ٢٧١ ويشهد له ما بعده.

(٥) ذكره ابن كثير في سيرته (١-٢٩٣) فقال: وروى أبو نعيم في الدلائل عن عاصم ابن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن محمد بن سلمة.. وهذا السند صحيح، ويشهد له ما قبله.

(٦) ص ٨٧٥ وانظر (محمد في الكتاب المقدس - ٣٣).

ظن اليهود أن هذا النبي القادم من أرض العرب الوعرة الشديدة الوعورة -وهي مكة -.. ظنوا أنه سوف يفني أبناء عدنان، وهم العرب على أيدي بني إسرائيل، فتهافتوا على جزيرة العرب ليشاركوا في ذلك. ولكنهم صدموا بنقل النبوة من قبيلتهم إلى أحد أبناء قيدار أي عدنان العربي، فحسدوه.

لكن لم يحسدونه؟ السبب موجود في هذه القصة

قصة إبراهيم وأبنائه

كان لإبراهيم ﷺ ولدان.. إسماعيل، وإسحاق، وإسماعيل هو الأكبر، وهما نبيان عليهما الصلاة والسلام. إسماعيل هو جد العرب، وإسحاق هو والد يعقوب جد اليهود، وليعقوب ﷺ اسم آخر هو (إسرائيل).

رزق يعقوب أو إسرائيل باثني عشر ولداً.. أحدهم نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام، وعندما صار يوسف عليه الصلاة والسلام وزيراً عند عزيز مصر انتقل والده وإخوته إلى هناك، فيوسف وإخوته هم أبناء إسرائيل، حيث تزوجزا، وتكاثروا، وتحول أحفادهم إلى اثتي عشرة عائلة (قبيلة)، وتزايدت أعدادهم في مصر، حتى جاء زمن الطاغية فرعون. في تلك الأثناء ولد نبي اسمه (موسى) وأخوه (هارون) عليهما الصلاة والسلام، وقد بعثه الله نبياً بالتوحيد لإنقاذ بني إسرائيل من الشرك والاضطهاد، ثم تولى القيادة من بعد موته في سيناء تلميذه النبي: يوشع عليه الصلاة والسلام. ثم جاء أنبياء كثيرون من أبناء إسرائيل من بينهم داود، وابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام، حتى جاء الزمن الذي بعث فيه عيسى عليه الصلاة والسلام، وهو أيضاً من أبناء إسرائيل.

كل هؤلاء الأنبياء أرسلوا لإعادة قومهم إلى التوحيد، وترك الشرك والبدع والانحراف، ومع ذلك استمر انحراف أغلب اليهود - بني إسرائيل- حتى وصل بهم الإجرام الأمر إلى اغتيال وذبح بعض الأنبياء، كما حدث لنبي الله زكريا وابنه يحيى الذي هو ابن خالة عيسى بن مريم عليهم الصلاة والسلام. بل حاولوا اغتيال عيسى، ولما رفعه الله تعقبوا أتباعه بالقتل والتشريد، وكان من أشرس اليهود الذين فتكوا بأتباع عيسى ﷺ رجل اسمه «شاءول»[1] هذا الطاغوت أحس بأن الاضطهاد لا يفني

(١) واسمه الذي يشتهر به عند النصارى وفي الإنجيل المحرف هو: القديس (بولس أو بول).

الأديان، ولا يفني أتباعها، بل يزيدهم رسوخاً وثباتاً وتصفية. لذلك بحث هو وأشرار اليهود عن طريقة للقضاء على تعاليم الله لعيسى بن مريم، فاكتشف أن محاربة الدين من الداخل أجدى من محاربته من الخارج، فأظهر لأتباع عيسى بن مريم أنه قد تاب وندم على ما قام به من قتل وتعذيب، وأظهر لهم الرهبنة والتنسك، وبعد أن تأكد من اقتناع من حوله بتوبته، وبعد مرور زمن على ذلك بدأ بتنفيذ مخططه اليهودي الخبيث. فقد ادعى أنه رأى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام في البرق بين السحاب، وأنه قد منحه حق النبوة، ثم جاء بالطامة الكبرى بعد مدة، فادعى أن عيسى بن مريم ظهر له مرة أخرى وأخبره بأنه ابن الله. ثم تحول إلى تعاليم عيسى ليفسدها، فنسخ كثيراً منها: كالختان والطلاق وأكل لحم الخنزير، وغير عطلة السبت لتكون يوم الأحد، وأدخل الوثنية إلى تعاليم نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام فأفسدها إلى اليوم. لذا فلا يمكن اليوم رؤية مسيحي واحد بقي على تعاليم المسيح حتى البابا نفسه[1].

فإذا كان اليهود قد فعلوا كل هذا وأكثر مع أنبياء من اليهود أنفسهم.. من إخوتهم، فهل يُتوقع أن يستقبلوا محمداً ﷺ بالأحضان والقلوب المبتسمة وهو ليس من أبناء اليهود؟

الإجابة معروفة. فاليهود ينتظرون نبياً منهم ليسحقوا به العرب وسائر الأمم، لا ليهدوا به العرب. فكيف يؤمنون بنبي قد يجعل من هؤلاء العرب سادة الدنيا وقادة العالم. حسدُ بني إسرائيل يقول: لا، وألف لا. لكن عالماً من يهود يقول عكس ذلك.

عبد الله بن سلام لا يقول: لا

رجل من بني إسرائيل.. من اليهود.. عالم، ومثقف كبقية علماء اليهود، لكن صدره أبيض كالثلج.. واسع كالمدى.. متلهف للحقيقة كالضياع كالعطش. عالم اسمه عبد الله بن سلام.. صادق اسمه عبد الله ابن سلام. كان يحدث من حوله فيقول: (لما أن قدم رسول الله ﷺ المدينة وانجفل[2]) الناس قبله فقالوا: قدم رسول الله ﷺ. فجئت في

---

(١) ينفي أحد الكتاب المسيحيين أن يكون البابا يسير على خطى المسيح، فالمسيح متواضع يلبس ثيابا بسيطة ورثة، ويعيش مع الفقراء، بينما يلبس البابا الحرير والذهب ويسكن في قصر فيه أكثر من ثلاثة آلاف غرفة، قد تم تبليطه بأغلى أنواع الرخام، بل كان بعض الباباوات يحمل حملا.

(٢) انطلق الناس نحو رسول الله ﷺ.

الناس لأنظر في وجهه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته منه أن قال:

يا أيها الناس: أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)[1].

كلمات قليلة تذوب فيها كل نظريات العدل والمساواة والإصلاح التي ينادي بها البشر. أي مجتمع سيولد في المدينة! مجتمع تفشو بين أهله التحايا والهدايا والسلام.. مجتمع يمد يديه للمحتاج، ويشق الطرقات بين الأقارب والأرحام، وعندما يهدأ النهار ويدلف إلى خبائه، وتسكن الطيور في الأوكار.. تحلق أرواحٌ مؤمنة إلى ربها تناجي، وتخاف وترجو بدموعها رحمة الرحيم.

إنه لم يطالب بشيء لنفسه حتى الآن.. إنه يطالب بأن يكون الإنسان بكليته لله، ثم يطالب هذا الإنسان رحمة لأخيه الإنسان.

أيقن ابن سلام أن هذا الرجل ليس بكذاب، ولا يأتي كذاب بمثل هذا الحب والسلام، لكن أين كان ابن سلام عندما قدم رسول الله ﷺ؟

أنس بن مالك ذلك الأنصاري الصغير يحدثنا عن مكانه وأنه كان في نخلٍ لأهله يخترف لهم الرطب، فجاء وأدوات الاختراف بيديه.. نسي أن يتركها من شدة ذهوله.

يقول أنس: (قيل في المدينة: جاء نبي الله ﷺ. فاستشرفوا نبي الله ينظرون إليه، ويقولون: جاء نبي الله. فأقبل يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدِّث أهله إذ سمع به عبد الله بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع الذي يخترف فيها، فجاء وهي معه، وسمع من نبي الله ﷺ ورجع إلى أهله.

وقال نبي الله ﷺ: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي. قال ﷺ: «انطلق فهيئ لنا مقيلاً»، فذهب فهيأ، ثم جاء فقال: يا رسول الله ﷺ قد هيأت مقيلاً، قوما على بركة الله فقيلا)[2].

---

(١) سنده صحيح. رواه البيهقي ٢-٥٣١ وغيره من طرق عن عوف بن أبي جميلة وهو ثقة عن زرارة بن أبي أوفى تابعي ثقة عابد التقريب ٤٣٣ و٢١٥.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩١١) والبيهقي واللفظ له (٥٢٨/٢).

إذا فقد عاد عبد الله بن سلام إلى حائط أهله بعد أن رأى وسمع. فمتى أسلم وكيف أسلم؟

يكمل أنس قصته فيقول: (فلما جاء نبي الله ﷺ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك نبي الله حقاً، وأنك جئت بحق، ولقد علمت يهود أني سيدهم، وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم... فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت، قالوا فيَّ ما ليس فيَّ.

فأرسل نبي الله ﷺ إليهم، فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئت بحق، أسلموا» فقالوا: ما نعلمه)[1]. ترى هل أسلم هذا العالم المثقف لمجرد رؤيته رسول الله ﷺ دون استفسار.. دون سؤال، أو حصول على علامة وبيان؟ هذا ما لا يفعله عادة المثقفون والعلماء، وعبد الله بن سلام منهم، فهو لم يسلم مباشرة. فبعد أن (سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرضٍ... فأتى النبي ﷺ، فقال: إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة[2]؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟

وما ينزع الولد إلى أبيه وإلى أمه؟

قال ﷺ: «أخبرني بهن جبريل آنفاً».. قال ابن سلام: جبريل؟! قال ﷺ: «نعم». قال ابن سلام: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

ثم قرأ ﷺ هذه الآية: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾. أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق إلى المغرب.

وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت.

وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة نزعت الولد.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩١١) والبيهقي واللفظ له (٥٢٨/٢).

(٢) علامات الساعة، وعلامات الساعة كثيرة... منها بعثة رسول الله ﷺ لكن لها علامات كبرى عجيبة مفاجئة للعالم هذه أولها ومنها خروج اليهودي المسيح الدجال ونزول المسيح عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من جهة المغرب...

قال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله. يا رسول الله إن اليهود قوم بهت[1]، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسلهم عني بهتوني.

فجاءت اليهود إليه، قال ﷺ: «أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا.

قال ﷺ: «أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. قالوا: شرنا وابن شرنا.. وتنقصوه[2]. قال ابن سلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله)[3].

هذا هو الفرق بين اليهود والنصارى، بل وغير النصارى غالباً، فالنصارى ضحايا اليهود فسماهم الله (الضالين)، أما اليهود فهم يعرفون الحق ويتركونه، ولذلك وصفهم الله بـ: (المغضوب عليهم) والتاريخ يحدثنا عن اليهود كثيراً، وعن رفضهم وقتلهم الأنبياء والمصلحين، بل إنهم سبب ضلال النصارى[4] وبعدهم عن الحق، فلا غرابة ولا عجب أن رفضوا رسالة الإسلام، وغبي كل الغباء من يظن أنهم غير ذلك، والتاريخ شاهد والواقع على طرقاتنا يتلو علينا كل صباح مؤامراتهم.

فلننصرف عنهم كما انصرفوا عن رسول الله ﷺ، ولندخل مع رسول الله ﷺ إلى دار أبي أيوب، الذي أصبح مقراً مؤقتاً لرسول الله ﷺ ريثما يجد له منزلاً مستقلاً.. له ولزوجته القادمة سودة رضي الله عنها.

فتحنا الباب فوجدنا أبا أيوب رجلاً من كرم.. رجلاً من شعور.. مهذب وحساس، ومحب لله ولرسول الله ﷺ وللإسلام أكثر من نفسه.. كان صدره أفسح من بيته، وكانت يداه غيمتين.

جدران بيت أبي أيوب تحكي لنا هذه القصة.. تروي لنا كم كان أبو أيوب مسلماً.. كم كان عظيماً..

---

(١) أقوام يفترون ويكذبون ويلصقون في المرء ما ليس فيه.

(٢) عابوه.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له ٢-٥٢٩.

(٤) كما معر معنا في قصة بولس أو شاءول.

يقول أبو أيوب: (لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو. فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أكره وأُعظِم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل.

فقال ﷺ: «يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت». فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حب[1] لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده[2] فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً، فرده رسول الله ﷺ، فلم أر ليده فيه أثراً. فجئته فزعاً، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟

فقال ﷺ: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه. فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة»)[3].

وما دام ﷺ يكره رائحتها فأبو أيوب يكرهها كذلك، لقد قال لرسول الله ﷺ (فإني أكره ما تكره)[4] ومع ذلك لم تسكن نفس أبي أيوب.. لم يجد للراحة مكاناً، ولم يجد للراحة طعماً رغم شدة فرحه برسول الله ﷺ داخل بيته.. لماذا؟.. لماذا؟

أبو أيوب مُحرج

لو رأيته وهو يسير في منزله لأشفقت عليه، فهو لا يتحرك إلا في مساحة ضيقة من بيته.. كأن الجن والأشباح تنزل في البقية الباقية. لقد حدد له زاوية من المنزل

---

(١) وعاء يوضع فيه الماء كالزير والجرة.

(٢) أي بحثوا عن مواضع أصابعه وقصدوها.

(٣) إسناده صحيح. رواه ابن إسحاق سماعا من شيخه يزيد بن أبي حبيب، عن مرثد بن عبد الله اليزني، عن أبي رهم السماعي حدثني أبو أيوب، ويزيد ومرثد فقيهان ثقتان وأبو رهم هو الصحابي كلثوم بن الحصين رضي الله عنه. انظر سيرة ابن كثير ٢-٢٧٧.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي ٢-٥٠٩.

يتحـــرك فيهـــا وينتقل وينام، أما البقية الباقية فلا.. ذلك لأن الإســـلام صنع منه قلباً وحساً مرهفاً، فهو لا يريد أن يمشي فوق رأس رسول الله ﷺ.

(انتبه أبو أيوب فقال: نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ!!

فتنحوا فباتوا في جانب، ثم قال للنبي ﷺ يعني في ذلك؟

فقال ﷺ: "السفل أرفق بنا". فقال أبو أيوب: لا أعلو سقيفة أنت تحتها. فتحول رسول الله ﷺ في العلو، وأبو أيوب في السفل)[1].

لـــن تســـتغرب الدنيا ما قام به أبـــو أيوب رضي الله عنه، فهو ابن ســـحابة هتون تحوم في ســـماء الإيثار والكرم.. ابن سحابة اسمها الأنصار.. الأنصار الذين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2].

هذه شهادة الله لهم تتنزل عليهم من فوق العرش.. تعبر السماوات سماءً سماءً.. يتغنّـــى بها الأنصـــار.. يتغنى بها بنو النجار أخوال رســـول اللـــه ﷺ. وأبو أيوب من الأنصـــار، وأبو أيوب من بني النجار، ولإن كانت (خير دور الأنصار بني النجار)[3] فإن (في كل دور الأنصار خير)[4]. فالله جعل (آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصـــار)[5]. فـ (لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهـــم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله)[6].

الأنصـــار الآن يتوافـــدون.. يتتابعون نحو رســـول الله ﷺ.. يســـلِّمون.. يثلجون صدورهـــم بالقرب من حبيبهم.. كانوا يحملون الولاء والحب وشـــيئاً من الطعام.. كلٌ حســـب ما يجد، لكـــن أحد الفقراء المعدمين الذين لا يملكـــون حتى ثيابهم.. كان على الباب ينتظر، وكانت هيئته رثةً تدمي القلب، وتدمع العين، ومع ذلك استطاع بعد جهد وعرق أن يحصل على شيء من طعام، لا ليأكله.. لا ليتصدق به، بل ليهديه.

---

(١) حديث صحيح.رواه مسلم والبيهقي (٢/٥٠٩).
(٢) سورة الحشر: الآية ٩.
(٣) حديث صحيح. متفق عليه.
(٤) متفق عليه وهو آخر الحديث السابق.
(٥) صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٤).
(٦) صحيح. رواه البخاري (٣٧٨٣).